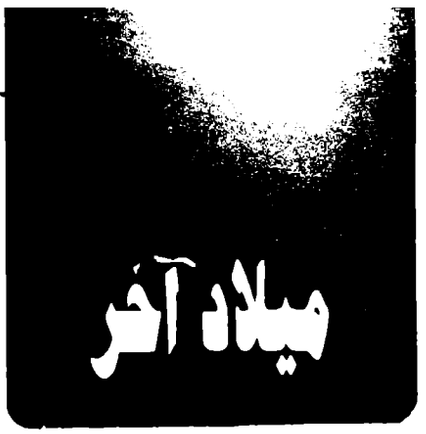

ميلاد آخر

قصة : طاهر صالح سعيد

ترجمة : محمد صابر محمود

عندما وصلت المدينة الصغيرة، كانت ماتزال أمامك ثمة من مسافة للوصول داخل الممر الجبلي .

وقفت منتظرة طويلاً.. ذرعت المكان جيئة، وذهابا.. مضطربة كنت، قلقة.. أفكارك كانت مشتتة.. قلبك كان يعتصره الضيق، في حين كانت عيناك تجوسان معالم المكان، كمثل عدستي آلة تصوير جافلتين، لاتستقران على شئ.. كانتا تلتقطان الصور المتنوعة، بسرعة متناهية.. كنت كمن يطأ بقدميه الأشواك.. تتمنين من الأعماق، لو تمتلئ سيارة (الجيب) بأسرع مايمكن، كي تتجه بك صوب الممر .

حجزت أحد المقاعد الخلفية، فأرحت جسدك عليه. كان الشارع مزدحماً، يعج بالرائحين، والغادين.. الصخب والضجيج كانا يملآن المكان. كل من كان يمر بجانب السيارة ويلقي على من فيها نظراته الفاحصة بفضول، كان يترك في أعماقك سيلاً من هاجس خوف شديد.. لذا كان حقدك، وضغينتك يزدادان، ويكبران بأستمرار :-

أولاً : على سائق السيارة الذي كان يشرئب بعنقه، داخل السيارات الأخرى الواقفة في الصف، متفحصاً إياها كما تفعل القطط..

وثانياً : على كل أولئك الأشخاص الذين، إذا مادنوا وصاروا بأزائكم، تبثاطأت خطاهم، فأرسلوا نظرات فضولية إلى مافي داخل السيارة (الجيب) .. ومن ثم يديرون عليها ظهورهم، فيسيرون لحال سبيلهم، من دون أن يملأ أي واحد منهم، ولو مقعداً واحداً من مقاعدها الشاغرة!! لمحت جماعة، كانوا يحثون الخطى، مقبلين نحوكم.. معظمهم كان بمفرده من دون متعة.. سرعان ماأدركت بأن هؤلاء الذين يقبلون بأتجاهكم، سوف لن يمضي وقت طويل، حتى يملأوا المقاعد الخالية في السيارة.

وكان حدسك في محله، حيث حصل ذلك فعلاً، لأن مثل تلك التوقعات كثيراً ماتصيب، إذ يمكن التمييز بسهولة بين من هم مزمعون على السفر حقاً، وبين المارة الاعتياديين الذين يلقون نظرات عابرة على السيارات الواقفة، ثم لايلبثون أن يتركوها، ومن ثم يمضون في طريقهم.

انطلقت السيارة.. قطعت المنعطف، ومن ثم انحدرب، تاركةً وراءها القصبة.. استمرت سائرة.. قطعت مسافة.. وصلت بأزاء البقعة المكسوة بأشجار الدلب.. من هناك استدارت جهة اليسار.. لاحت القرية، ببيوتها المتداعية القميئة، والتي لايتجاوز تعدادها، الخمسة، أو الستة.. حال ظهور ملامح تلك القرية، انتعشت في نفسك الآمال.. تبدد الهم الكبير الذي كنت تنوئين بثقله، وانزاح عن صدرك.. داومتم على السير.. استبانت الدار الواقعة بمفردها في أقصى القرية.. حالما لاح لعينيك منظر تلك الدار، داهمك شعور بالاضطراب.. من مكانك الذي أنت فيه، ندّت منك آهة، تنضح بالحسرة.. سرحت.. تدليت غائصةً في أعماقك.. استوقفت ذكرياتك التي تعود إلى ماقبل ثمانية عشر عاماً خلون: «كان قد مر على افتراقكما، مايقارب الثلاثة أشهر.. كل مساء، وقبل أن تلملم الشمس أذيالها، لتنحدر إلى الطرف الآخر من الجبل الذي يستقر خلف القرية، كنت تلازمين سطح الدار.. كان وحيدك ـ آنذاك ـ طفلاً رضيعاً. كنت تتطلعين إلى ذلك الطريق الذي يلتقي بأسفل القرية ممعنة فيه بدقة.. كنت على علم بالرائحين عليه، والغادين منه. أثناء تلك الساعات من كل أمسية، كانت همومك تتكاثف من لحظة إلى أخرى.. وكلما اشتدت حلوكة الظلام، كان إحساسك بالوحشة يزداد حدة» .

سيارة (الجيب) كانت تسير على مهلها، مثيرة في أعقابها غباراً كثيفاً.. تعصف به الريح، ومن ثم تعود بقايا قسم منه، لتتحول إلى زوابع ترابية، تتناثر دقائقها على خدود، وأجفان الركاب القابعين داخل السيارة، فتتبيّن من جرائها شفاههم وحناجركم.. «حددت من نظراتك.. أمعنت بدقة أكثر من ذي

ـر . كانت الشمس، ساعتئذ، علىٰ وشك أن تودع معالم القرية، خيرة إلىٰ ماوراء الجانب الآخر.. صعقة مباغتةٌ فاجأتك.. أرتج ـب قلبك.. لاح لعينيك وهو يقبل علىٰ مهل.. كان التعب يلجم حصواته.. انتفضت.. جمعّتِ قواك، ومن ثم هبطت شرفة الدار.. ـطلقت مسرعـة.. قطعت منعـطفـات البيوت.. بلغت ناصية حريق. توقفت هناك برهة.. تطلعت جيداً.. لم تتمالكي نفسك، ـطلقت ساقيك في إثر خطواتك.. التقيت به خلف ينبوع الماء ـي ترتـاده النسـاء.. طوقتـه بذراعيـك.. وضعت يديك بين ـ حتيه.. أرحت رأسك علىٰ صدره.. بقيت هكذا برهة من الوقت»

قرية (ك)، أخذت تغرق في ظلام الليل.. وعثاء الطريق، قذفت به في أحضان نوم عميق، تتخلله أحلام متقطعة مزعجة.. وقبل أن يـسحب الأفق وراءه قرص الشمس، استحال فريسة في قبضة صيادي ذلك الصباح. لحد الآن، وبعد مضي سبع عشرة سنة على ذلك الحـادث، فلازال رجال تلك القرية، حينما يجتمعون حول مدفـأة المسجد، فأنهم يروون قصته علىٰ النحو التالي: «بعـد أن قيـدوه، أخـذوا يسحبـونـه وراءهم حتىٰ غابوا عن الأنظار.. ثمة غبار كان يتصاعد في أعقابه، حاجباً وجه السماء»

سيارة (الجيب) كانت تسير بأتجاه الممر الجبلي، ساحبةً وراءها أعداداً لاتحصىٰ من القرىٰ.. أما هي، فلقد كانت تتراءىٰ لعين النـاظر، أمام جسامة الجبلين العظيمين الممتدين علىٰ جانبي الطريق، وكأنها نملة خائرة القوىٰ، وهي تدب علىٰ الأرض ببطءٍ شديد!!

.. وأما ركاب السيارة، فإنهم كانوا بدورهم يطرقون رؤوسهم أمام شموخ الجبال، ورعونتها، وضيق الطريق ووعورته. تلك كانت حال أولئك، في حين كانت هي سارحةً في دنياها الخاصة، غائصة في أعماقها، تستقي من دلاء ذكرياتها المريرة المؤلمة.. قبل ثمانية عشر عاماً مضين، بادرها بقوله :ـ

«ـ إن هذا الطفل لهو أمانة في عنقك .

فأجبته أنت :ـ

«ـ سوف أفديه بروحي .» .

كان الممر الجبلي مشرفاً علىٰ نهايته، والسيارة تنحدر علىٰ رسلها.. استبـان الطرف الآخـر من الممـر.. شرع الركاب يتململون.. أبـطأت السيـارة.. عند وصولها السقيفة القريبة من الطريق حادت، ثم توقفت.. ترجل الركاب الواحد تلو الآخر.. سيماؤهم المعفرة بالغبار كانت تحكي سيماء الطحانين !!

أنت لم تتـوقفي هنـاك، وإنمـا أخـذت طريقك من علىٰ جانب السقيفة، ومن ثم انحدرت. كانت الشمس آنئذٍ ترسل أشعتها عمـودياً علىٰ هامتك.. أدرت باصرتيك في الاتجاهات الأربعة.. نظرت حواليك ملياً.. سنابل القمح الذهبية، كانت تتراقص في مهب النسائم الرخية من تلك الظهيرة.. رنوت عالياً ..

كانت الأطيـار تنـطلق في أجـواء الفضاء، تطوف، وتجوب، ثم ماتلبث أن تلقي بمـراسيهـا فوق مرافىء رأسك.. اقتفيت آثار خطواتـك.. لم يطل بك المسير حتىٰ لاحت مجموعة السقائف لناظريك.. بظهور ملامح تلك السقائف، تبدد كل ماكان يثقل كاهلك من وعثاء السفر خلال تلك الفترة.

* * *

تقدمت إلىٰ الأمام بخطىً نشطة، كي تصلي بأسرع مايمكن إلىٰ مكان وجود السقائف.. سرىٰ في كيانك احساس مثير.. كنت ـ كمثـل بحر هائج ـ تستعجلين احتضان الأمواج.. وإذ طوقته بذراعيك، فطبعت القبلة الأولىٰ علىٰ عينه، انبجست دمعتان من موقيـك حاولتا قطع الطريق عليهما، لتحيلا ثمرة ثماني عشرة سنـة من العمـر إلىٰ شبـح.. غير أنـك، وقبل أن تحقق تلكما الدمعتـان مرامهمـا، عاجلتهما، فطبعت قبلتين ساخنتين علىٰ وجنتيه الخشنتين .

أثنـاء تلك اللحظات بالذات، تذكرت كلام أبيه، حيث قال لك، وأنتما في السقيفة :

«ـ سوف أسلم هذا المكان من بعدي إلىٰ (جوامير)» .

سرتمـا باتجاه السقيفة.. كنتما تتحسسان روحه، وهي تزداد دنواً منكما، ومن ثم تستحيل ملاكاً بهيّ الطلعة.. ينطلق، غادياً، رائحاً في سماء السقيفة .

هذه القصـة منشـورة ضمن مجمـوعـة القاص الموسومة بـ (الخطوة).. الصادرة عن وزارة الثقافة، والأعلام ـ دار الثقافة، والنشر الكردية ـ تحت التسلسل بغداد ١٩٨٨ .

○